المعرفة في التصور الإسلامي
مصادرها وخصائصها

بقلم
الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الحميد الشاعر
أستاذ العقيدة والفلسفة

هذا البحث

هو الجزء الثاني والأخير من (المعرفة في التصور الإسلامي)

والذي نشر في جزوه الأول في العدد الحادي والعشرين

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



المعرفة وأهميتها :

أصبح من المؤكد أن الإنسان – بحكم دوافعه الذاتية والخارجية – ينشغل دوماً بالبحث عن معرفة كل ما يحيط به من أشياء ، وفي ذات نفسه أيضاً ، فيحاول – جيده – أن يتعرف عليها من حيث طبيعتها ، والعلة التي تحكمها ، والغاية منها .... الخ .

إن هذا الأمر الطبيعي أدي إلي تنوع المعارف التي تحصل عليها

سواء في مصدرها : حسية أم عقلية . فطرية أم مكتسبة . ربانية أو إنسانية .

وسواء في طبيعتها : جزئية أم كلية . عامة أم خاصة .

وسواء في قيمتها : ظنية أم يقينية أم احتمالية .

وسواء في ذاتها ونسبتها : مطلقة أم نسبية . أصلية أم فرعية .

بيد أنا حينما نطرح موضوع المعرفة للبحث والاستقصاء ، والفحص والتمحيص فإنه يصبح من الطبيعي أن تكون تلك المعرفة من نوع خاص جدير أن ينشغل به العلماء ، والمفكرون والحكماء " وما يعقلها إلا العالمون " .

من هنا كانت تلك التساؤلات التي تفرض نفسها :

ما المراد بتلك المعرفة ؟

وما أهميتها ؟ وما قيمتها ؟ وما حكم العلم بها ؟

وما مصادر تلك المعرفة ؟

وأين تلك المصادر من طبيعة الإنسان وتكوينه ؟ .... الخ ...

لبيان ذلك نقول وبالله التوفيق :

إن ذلك النوع من المعرفة التي يكرس له الباحثون جهدهم تعني به بما يسمي : المعرفة العليا ، أو حقيقة الحقائق ، أو الحقيقة المطلقة الخالدة التي تكمن وراء هذا الوجود ، ومنها يستمد كل موجود وجوده ، وتهيمن عليه خلقاً وإبداعاً ورعاية ، وحكماً وتدبيراً .

ويقال عنها : إنها البحث عن أسرار الوجود وعلله ، أو علم الأشياء بحقائقها ، كما تسمي الفلسفة العليا ، أو الفلسفة الأولي ، أو الميتافيزيقا .

إنها المسئول عنها دائماً ، من أين ؟ وإلي أين ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ أما قيمة تلك المعرفة وأهميتها فإنها تتعلق بقيمة موضوعها الذي هو الغاية القصوى منها – الحق تبارك وتعالي .

ذلك أن الإنسان قد خلق لغاية كبري هي عبادة الله تعالي – وحده لا شريك له – تحقيقاً لقوله تعالي : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦ : ٥٨] ، ومن ثم يصبح من البديهي أن يعشق البحث عنه ، ويشتاق إليه ، حيث يتعرف علي معبوده بحق ، ويعلم – بيقين – ما يليق بذاته القدسية من صفات الجلال والكمال.

بهذا جاءت الرسالات السماوية " ذلك أن الأنبياء " – عليهم السلام – دعوا الناس إلي عبادة الله أولاً بالقلب واللسان ، وعبادته متضمنة لمعرفته وذكره " (١) .

ويضيف ابن تيمية قائلاً :

" ففاتحة دعوة الرسل : الأمر بالعبادة . قال تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وقال رسول الله (ﷺ) " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . وأن محمداً عبده ورسوله " وذلك

---

١ – مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢ كتاب توحيد الربوبية ص (١٥)

يتضمن الإقرار به ، وعبادته وحده ، فإن الإله هو المعبود – ولم يقل حتى يشهدوا ألا رب إلا الله . فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له . التي لها خلق الخلق ، وبها أمروا .

" كذلك قوله لمعاذ : إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله " وقال نوح عليه السلام "أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون " وكذلك الرسل في سورة الأعراف وغيرها" (١)

يريد – رحمه الله – ما جاء في سورة الأعراف بقوله تعالي عن نوح عليه السلام ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) .

وعن هود عليه السلام ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٣) .

وعن صالح عليه السلام ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٤).

وعن شعيب عليه السلام قوله : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٥) .

كما يريد – رحمه الله بغير الأعراف الكثير من سورة القرآن الكريم التى ورد فيها بيان أول دعوة الأنبياء – عليهم السلام – مثل سورة هود ، وسورة الشعراء وغيرهما .

---

١ – نفسه ص (١٣ – ١٤) .

٢ – سورة الأعراف الآية رقم : (٥٩) .

٣ – سورة الأعراف الآية رقم : (٦٥) .

٤ – سورة الأعراف الآية رقم : (٧٣) .

٥ – سورة هود الآية رقم : (٨٤) .

على ضوء هذا وغيره يقرر شيخ الإسلام " أن أول الواجبات هو الإيمان بالله لا النظر " (١) .

بينما يري غيره من العلماء كالسنوسي – رحمه الله – أن أول واجب على المكلف هو النظر فيقول " جمهور الأئمة يرون وجوب النظر وتحريم الاقتصار على التقليد " .

ويوضح النظر بقوله : " حقيقة النظر : ترتيب أمور معلومة على وجه يؤدي إلي استعلام ما ليس بمعلوم . كذا عرفه البيضاوي " .

وبعد أن استعرض آراء العلماء في حكم النظر يقرر رأيه المختار مع التعليل فيقول " أخذت من هذه الأقوال : أن أول واجب هو النظر لتكرار الحديث على النظر في الكتاب والسنة حتى كأنه مقصد " .

وبناء على ذلك يؤكد السنوسي – رحمه الله – أن التقليد لا يكفي في العقائد . ويدعم هذا الرأي بقوله : " كل آية في القرآن ذامة التقليد ، وآمرة بالنظر والاعتبار . دليل على ذلك كقوله تعالى : ﴿ قل انظروا ﴾ ، وقوله جل وعلا : ﴿ أولم يتفكروا ﴾ وقوله سبحانه ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ .

والسنوسي – رحمه اله – يريد بآيات ذم التقليد أمثال قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٧٠) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (سورة الزخرف : ٢٣ – ٢٤) .

---

١ – مجموع الفتاوي ج ٢ هامش ص (١) .

ثم يحذر السنوسي الإنسان من تأنيه في عدم مبادرته بالنظر حتى لا يفاجئه القدر ولا يتحقق له الإيمان . يقول " حذر – سبحانه – المتأني بالنظر بخوف قرب موته فيفوته النظر بتأنيه ، فيموت غير مؤمن عند بعضهم . فقال بعد قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ﴿ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] وإجماع الصحابة دليل على وجوب النظر ، فإنها لم تزل تذم التقليد ، وتحذر منه ، وهو قول شائع بينهم من غير أساسية ، وعناصر ذاتية في طبيعة الإنسان ، حيث إن هذه الطبيعة في أصل تكوينها وخلقها ترجع إلي قبضة من تراب الأرض ونفخة من روح الله تعالي : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (سورة ص : ٧١ – ٧٢)

هناك – إذن – جانبان أساسيان في طبيعة الإنسان : أحدهما مادي والآخر روحي ، سبحان من ألف بينهما في وحدة متكاملة متناسقة مؤتلفة

وقد خلق الله الإنسان لرسالة كبري ، ومهمة عظمي في الحياة تتحقق منها غايات ثلاث :

الأولي : العبادة المطلقة والخالصة لله تعالي وحده لا شريك له .

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (سورة الذاريات ٥٦ – ٥٨ ، مكية) .

الثانية : الخلافة عن الله في الأرض لينشر فيها العدل والأمن والطمأنينة والسلام .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ٣٠ ، مدنية) .

الثالثة : عمارة الأرض ، واستغلال ما فيها من خيرات لصالح الإنسان والحياة .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (سورة هود : ٦١ ، مكية) .

من هنا اقتضت حكمة الله تعالي أن يزود الإنسان بوسائل العلم والمعرفة التي تمكنه من أداء رسالته في الحياة .

ومن قبل هذه الأدوات والوسائل تكمن الدوافع الذاتية ، ثم تحيط به الدوافع الخارجية من كل مكان .

ولهذا تنوعت تلك الوسائل حسب طبيعة الإنسان فكان منها :

١ – **الحواس** : تلك المنافذ التي من خلالها ينفتح الإنسان على العالم الخارجي من حوله .

٢ – **العقل** : تلك الهبة الربانية التي بها يتمكن الإنسان من القدرة على الإدراك والتأمل والتفكير ، وغير ذلك من العمليات العقلية .

٣ – **البصيرة** : ذلك المنفذ الروحي الذي ينفتح من خلاله على الملأ الأعلى ، فينكشف له ما يشاء الله حسب تفضله ورضاه .

تأمل قوله تعالي : **﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾** (سورة النحل : ٧٨ ، مكية) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : ٧٨ ، مكية) .

تلك هي الوسائل والأدوات التي مكن الله الإنسان بها من الوصول إلي المعرفة . ونحن مكلفون باستخدامها والمسئولية عنها ، بل هي مسئولة كذلك :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (سورة الإسراء : ٣٦ ، مكية) .

ولكن الناس إزاء هذه الوسائل مختلفون و " كل حزب بما لديهم فرحون "

فمن الناس من يقنع بالحواس وحدها ، ويثق كل الثقة بها ، ولا يلتفت إلي ما سواها.فلا يري في الوجود سوي هذا العالم المحسوس ، فكل موجود محسوس ، وغير المحسوس غير موجود ، وما لا يدركه الحس بذاته فغرض وجوده محال ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (سورة الجاثية : ٢٤ ، مكية) .

ومن الناس من يقنع بالعقل وحده ، ولا يري فيما سواه بديلاً أو نصيراً ، فلا يلتفت إلي الحواس ، ولا يهتز لصوت الفطرة ، ولا يرعى جانب الروح والبصيرة في نفسه .

ومن الناس من لا يشفي غليله ، ولا يروي ظمأه سوي الإدراك البصيري وحده بالمجاهدة النفسية ، والرياضة الروحية . أملاً في المعرفة اللدنية الربانية .

تلك صنوف البشر إزاء وسائل المعرفة وهي صنوف دائمة الوجود في كل أرض ، وكل عصر ، ولدي العامة والخاصة على السواء ... فأين منها التصور الإسلامي ؟ ... وبأي منها يمكن الوصول إلي المعرفة العليا التي نريدها ؟

أولاً : الإدراك الحسي

وظيفة الحواس :

إن الإدراك الحسي يعتمد على الحواس فهي المنافذ التي ينفذ من خلالها الإنسان على العالم الخارجي من حوله .

إنه يري الأشياء في صورها وألوانها وأحجامها .

وكذلك يلمسها في حرارتها وبرودتها وطراوتها وصلابتها . وكذلك يشم رائحتها الزكية والخبيثة ويتذوقها حلوة ومرة ، ومائعة ومزة ، ويسمع الأصوات من قريب أو بعيد ، قوية أو ضعيفة . حسنة أو قبيحة .. وهكذا .

هذه كلها معارف يستقيها المرء من خلال الحواس ، ولهذا فإن انعدام حاسة منها يؤدي بالضرورة إلي انعدام معرفة موضوعها .

غير أن الإنسان في تعامله مع الأشياء لا يقف عند حد المدركات الحسية فحسب بل ينزع بالضرورة إلي ما وراءها سمع صوتاً . فإن يدرك هذا الصوت ويتفحصه فيعرف أنه صوت إنسان أو حيوان ، فإذا كان لإنسان ... أدرك أنه صوت رجل أو امرأة أو طفل ، وإن كان صوت حيوان أدرك أنه زئير أسد ، أو صهيل حصان ، أو نهيق حمار ، أو صياح ديك .

هناك – إذن – علاقة مباشرة بين الإدراك والإحساس ... إذ الإدراك في جوهره استجابة لمؤثرات حسية بحسب طبيعتها وأشكالها . ولذلك " يطلق اصطلاح " الإدراك " أو الإدراك الحسي "في علم النفس على العملية العقلية التي تعرف بواسطتها العالم الخارجي . وذلك عن طريق المثيرات الحسية المختلفة التي تسقط على حواسنا المختلفة من العالم يحيط بنا " (١) .

---

١ – علم النفس الفسيولوجي ص (١٥١) ، د/عبد الرحمن العيسوي ، بيروت ١٩٧٤ .

" ومن أجل ذلك يقال : إنه لا يوجد إدراك بغير إحساس ، ولكن يوجد إحساس بغير إدراك ، ولذلك تختلف عملية الإدراك باختلاف الأفراد ، فأنت لا ترى في السماء ما يراه الفلكي ، ولا ترى تحت المجهر ما يراه عالم الأحياء " (١) .

مراحل الإحساس :

إن إحساسنا بالأشياء لا يتم هكذا دفعة بل يمر بمراحل هي :

١ – مرحلة فيزيقية كيمائية : وهي التأثر الخارجي ، والتغير الناتج منه في العضو .

٢ – مرحلة فسيولوجية:هي مجاوبة العضو ، وتأثير الجهاز العصبي

٣ – مرحلة وجدانية : وهي الإحساس بمعنى المعرفة أو الإدراك ، وبين المعرفة أو الإدراك .

والتأثير أو الانفعال نسبه عكسية . فإذا كان الانفعال قوياً . أضر بالإدراك ، فلكي يكون الإدراك تاماً ينبغي أن يكون التأثير الواقع على الحاسة مناسباً ، وأن يكون الانفعال معتدلاً (٢) .

هذه هي الحواس ، وتلك وظيفتها ، وهذا هو الإدراك الحسي ، فماذا عن قيمة المعرفة المعتمدة على الحواس ؟

قيمة المعرفة الحسية :

على ضوء ما سبق ينكشف لنا أن هذا النوع من المعرفة يتميز بما يلي: –

١ – الحسية : من حيث مصدرها ، ومن حيث مادة موضوعها .

---

١ – علم النفس الفسيولوجي ص (١٥٩) .

٢ – الطبيعة وما بعد الطبيعة ص (٧٦) يوسف كرم ط ٣ ، دار المعارف بمصر .

٢ – **الجزئية** : من حيث أنها متعلقة بالمادة في بعض أشكالها وصورها .

٣ – **التغير** : وذلك بسبب ما يطرأ على من المادة من تغيرات ، وكذلك الحواس أيضاً متغيرة .

٤ – **النسبية** : نسبة إلي الحواس ، وهي تختلف باختلاف الأفراد ، بل تختلف باختلاف أحوال الفرد نفسه ، صغراً وكبراً ، قوة وضعفاً ، صحة ومرضاً .

٥ – **أنها عرضة للخداع والوهم** ، مثلما يحدث في حال السراب ، وانكسار الضوء ، ورؤية الأجرام البعيدة صغيرة كرؤيتنا للشمس مثلاً قرصاً دائرياً صغيراً مع أنها في حقيقتها أكبر من الأرض .

٦ – **أنها معرفة ظنية** : وليست يقينية ومن هنا فإنها تحتاج إلي الإدراك العقلي بالضرورة لكي تكون يقينية . وكذلك لكي ترقي إلي مستوي القاعدة الكلية

هذه قيمة المعرفة الحسية فيما نري ، فماذا يري الماديون فيها بصفة خاصة ؟

الماديون والمعرفة الحسية :

والماديون لا يعترفون بغير ذلك النوع من المعرفة ، فلا يرون في الوجود سوي المحسوس ، وما لا يدركه الحس بذاته ففرض وجوده محال ، ومن هنا فإنهم ينكرون – في إصرار – ما وراء المادة من غيبيات وروحانيات ، ومفاهيم كلية ، وقيم إنسانية مطلقة ، وحقائق ثابتة .

إن ذلك يرجع إلي اعتماد الماديين المطلق " المنهج التجريبي " طريقاً إلي العلم والمعرفة ، وبما يرونه من القول بخواص المادة الذاتية بحيث تفعل وتؤثر بذاتها دون احتياج إلي قوة خارجية تحكمها . وقد تبلور هذا الموقف في جوانب كثيرة أهمها فيما نري : –

١ – حتمية العلاقة السببية .

٢ – يقينية النتيجة في المنهج التجريبي .

٣ – مادية السبب الأول الذي يحكم الوجود كله .

وبيان ذلك فيما يلي :-

أولاً : حتمية العلاقة السببية :

يعتقد الماديون أن الأسباب تفعل بذاتها ، لما تتمتع به من خواص ذاتية . فإذا وجدت النار والمادة القابلة للاشتعال ، فإنه – قطعاً وبالضرورة – يتحقق الاحتراق ... وهكذا .. وإن هذا أمر واضح البطلان – فقد يتخلف السبب ويوجد المسبب كما في خلق آدم – عليه السلام – وكما في حال سيدنا إبراهيم ، ومحاولة المشركين إحراقه بالنار . وإن كان الماديون ينكرون ذلك فإنكارهم لن يغير من الأمر شيئاً ، لأنه حقيقة واقعة ، ومعجزة حسية مناسبة للمفاهيم المادية

يعني هذا : أن ثمة قدرة خارجية تحكم الأسباب المادية ، فإن أرادت لها أن تفعل فعلت وإلا فلا .

وبذلك يتهافت القول : بحتمية العلاقة السببية :

ثانياً : يقينية النتيجة :

وقد زعموا أن النتيجة في المنهج التجريبي يقينية لأنه يعتمد على الملاحظة العلمية ، والتجربة العملية ، فإن المادة تتمتع بخواص ذاتية التأثير .

ولكننا نقول : هذا وهم من أوهام الماديين اللهم إلا إذا كانت تلك النتيجة تؤكد حقيقة كونية واقعة ، فهي حينئذ حقيقة علمية .

أما في مجال النظريات العلمية فإنها – في كثير من الأحيان – عرضة لأن تنهار وتقوم على أنقاضها نظرية أخري جديدة .

إن هذا الذي نراه يتأكد من بحوث الماديين أنفسهم في مجال المادة – ونعني بذلك نظرية الذرة القديمة – .

فمنذ أن قال ديمقريطس ٤٢٠ ق.م ، والماديون يعتمدونها فيعتقدون أن الذرة هي ذلك الجزئ الذي يشكل الوحدة الأساسية في بناء الكون ، لا تتجزأ ، ولا تنشط ولا تنقسم .... الخ .

واستمر الحال هكذا حتى جاء أينشتين ، بأبحاثه في " النسبية العامة والخاصة " والتي كانت الشرارة التي انطلق منها العلماء لاقتحام الذرة وكانت النتيجة انشطارها وتفجرها . فانكشف للعلماء أن الذرة عالم رهيب يحتوي على بروتونات وإليكترونات ونواة ، وأنها أخطر سلاح عرفته البشرية ، من الممكن أن يحقق الدمار الشامل ليس في الحاضر فقط بل في المستقبل أيضاً ، كما أنه من الممكن استغلاله في رفاهية الإنسانية والحفاظ عليها في مجالات الطب والزراعة والصناعة وغيرها.

بهذا كله انهارت النظرية الذرية القديمة . وقامت على أنقاضها تلك النظرية الجديدة ، يقول البروفيسور سوليفان بعد نقد وجهه إلى النظريات العلمية:

" هذا العرض للنظريات العلمية يثبت أن معنى " نظرية علمية صحيحة " أنها " فروض علمية ناجحة " ومن الممكن تماماً أن يكون سائر النظريات العلمية باطلاً . ذلك أن النظريات التي نعتبرها اليوم (حقيقة) ليست إلا قياساً على وسائلنا المحدودة للملاحظة ، ولا تزال قيمة الحقيقة في عالم العلم ، قضية عملية نفعية " (١) .

نخلص من ذلك إلى ما قلناه أولاً من أن النتيجة في المنهج التجريبي ، ليست يقينية – كما يزعم الماديون – وإنما هي احتمالية تحتمل الخطأ وإن قبلت الصواب .

---

١ – الإسلام يتحدى ص (٤٦) وحيد الدين خان ، ط ٨ المختار الإسلامي ، القاهرة .

ثالثاً : نوعية السبب الأول :-

يعتقد الماديون أن كل شيء في الوجود سببه المادة ، أو الطبيعة منها كل شيء ، وإليها يرجع كل شيء حتى الإنسان بما فيه من روح وعقل ووجدان . كل ذلك ليس سوي نتاج التفاعلات الكيميائية في جسم الإنسان.

أما كيف نشأت الحياة من تلك المادة من وجهة النظر المادية ؟ فإنهم يردونها إلي : الصدفة أو الطبيعة .

ومن الذي أودع فيها خواصها ؟

ومن الذي حدد لها نسب تكونها وتلاحمها ؟ وهكذا ...

الجواب : أن كل ذلك يتم بالصدفة ، أو الطبيعة .

والرأي – عندنا – أن هذه خرافة يرفضها العقل السليم . بمقتضى " قانون السببية " الذي يعرفه الماديون أيضاً .

أما في جانب الصدفة ، فإنه من المحال عقلاً بمقتضى هذا القانون أن يوجد شيء ما بغير سبب فاعل في وجوده .وليس من المعقول أن يكون هذا العالم – بما فيه من إبداع وضبط وتوازن ، وانسجام وتماسك – وليد الصدفة .

وأما في جانب الطبيعة فإنه يترتب عليه – بمقتضى قانون السببية كذلك – أن تكون الطبيعة فاعلة ومنفعلة في وقت واحد ، وذلك لأنها من حيث إنها سبب تصبح متقدمة في الوجود على نفسها ، ضرورة تقدم السبب على المسبب في الوجود .

وكذلك من حيث إنها مسبب تصبح متأخرة في الوجود على نفسها ضرورة تأخر المسبب عن السبب في الوجود .

وهكذا تصبح الطبيعة متقدمة على نفسها ومتأخرة – كذلك – على نفسها في وقت واحد وهذا محال .

تأمل قوله تعالي في سورة الطور : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (سورة الطور الآية : ٣٥ ، مكية) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : " إن الحقيقة المعتبرة في كل برهان ، ودليل في العالم هو اللزوم ، فمن عرف أن هذا لازم لهذا ، استدل بالملزوم على اللازم ، وإن لم يذكر لفظ اللزوم ، ولا تصور معنى هذا اللفظ ، بل من عرف أن كذا لابد له من كذا ، أو أنه إذا كان كذا كان كذا ، وأمثال هذا ، فقد علم اللزوم ، كما يعرف أن كل ما في الوجود آية لله ، فإنه مفتقر إليه ، محتاج إليه لابد له من محدث ، كما قال تعالي : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (سورة الطور الآية : ٣٥ ، مكية) قال جبير بن مطعم : لما سمعت هذه الآية أحسست بفؤادي قد انصدع ، فإن هذا تقسيم خاصه ، يقول : أخلقوا من غير خالق خلقهم ؟ فهذا ممتنع في بداية العقول ، أم خلقوا أنفسهم ؟ فهذا أشد امتناعاً ، فعلم أن لهم خالقاً خلقهم .

" وهو سبحانه ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه القضية التى استدل بها فطرية بديهية مستقرة في النفوس ، لا يمكن لأحد إنكارها ، ولا يمكنه أن يقول : هذا أحدث نفسه " (١) .

هل صحيح أن المادة تتمتع بخواص ذاتية ؟

إن مشكلة الماديين – في كل ما قالوه ويقولونه عن المادة والكون والحياة ترجع – بصفة أساسية – إلي ما يزعمونه من القول : بالخواص الذاتية للمادة أي أن هذه الخواص من ذات المادة وبذاتها وليست بحاجة إلى قدرة فاعلة فيها .

هنا تحرير محل النزاع أو مربط الفرس كما يقال . فهل هذا صحيح ؟

---

١ – مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٩ كتاب المنطق ص (٢١٢) .

إن الأمر جدير بالاعتبار والاهتمام ، طالما أن هؤلاء يتكلمون باسم العلم الحديث أي الذي يعتمد على المنهج التجريبي . فهل يوافق العلم الحديث على ذلك ؟

إننا نعني هنا : " الفيزياء الحديثة على وجه الخصوص فأين منها ذلك الزعم المادي ؟

حسبنا في هذا المجال أن نقف على آخر ما توصلت إليه الفيزياء الحديثة ، من نتائج :

لقد بحث هذا الموضوع الأستاذ "محمد باقر الصدر" بدقة دقيقة ، في كتابه "فلسفتنا تحت عنوان المادة في ضوء الفيزياء (1) نقتطف منه ما يلي :- إنه يقول : " من الحقائق التى أتيح للعلم إثباتها هو : إمكان تبدل العناصر بعضها ببعض وعمليات التبدل هذه بعضها يتم بصورة طبيعية ، وبعضها يحصل بالوسائل العلمية .

وقام (رذرفورد) ... بأول محاولة لتحويل عنصر إلي عنصر آخر . وذلك أنه جعل قوي ذرات الهليوم (دقائق لالفا) تصطدم بنوي ذرات الأزوت فتولدت البرتونات . أي نتجت ذرة هيدروجين من ذرة الأزوت وتحولت ذرة الأزوت إلي أوكسجين .. وأكثر من هذا ... فقد ثبت أن من الممكن أن تتحول بعض أجزاء الذرة إلي جزء آخر ، فيمكن لبروتون – أثناء عملية انقسام الذرة – أن يتحول إلي نيوزون وكذلك العكس .

" وهكذا أصبح تبدل العناصر من العمليات الأساسية في العلم ، ولم يقف العلم عند هذا الحد . بل بدأ بمحاولة تبديل المادة إلي طاقة خالصة ، أي نزع الصفة المادية للعنصر بصورة نهائية . وذلك على ضوء جانب من النظرية النسبية لـــ (أنشتين) إذ قرر أن كتلة الجسم نسبية ، وليست ثابتة ، فهي تزيد بزيادة السرعة ... كما تؤكد التجارب التى أجراها علماء الفيزياء الذرية على

١ – فلسفتنا ص (٢٣٧) وما بعدها ، د / محمد باقر الصدر بيروت ط ١٠ سنة ١٩٨٠ م .

الالكترونات التى تتحرك في مجال كهربائي قوي ... " ويقول "أينشتين" في معادلته : إن الطاقة = كتلة المادة × مربع سرعة الضوء . (سرعة الضوء = ٨١٦,٠٠٠ ميلاً في الثانية) كما أن الكتلة = الطاقة : ÷ مربع سرعة الضوء وبذلك ثبت أن الذرة بما فيها من بروتونات والكترونات ليست في الحقيقة إلا طاقة متكاثفة يمكن تحليلها وإرجاعها إلي حالتها الأولي ، فهذه الطاقة هي الأصل العلمي للعالم في التحليل الحديث ، وهي التى تظهر في أشكال مختلفة وصور متعددة : صوتية ، ومغناطيسية ، وكهربائية ، وكيماوية ، وميكانيكية " .

وبعد بحث مستفيض يقول :

" ونستنتج من الحقائق العلمية التى عرضنا عدة أمور ؟

أ – أن المادة الأصلية للعالم حقيقة واحدة مشتركة بين جميع كائناته ، وظواهره ، وهذه الحقيقة المشتركة هي التى تظهر بمختلف الأشكال ، وتتنوع بشتي التنوعات .

ب – أن خواص المركبات المادية كلها عرضية بالإضافة إلي المادة الأصلية ، فالماء بما يملك من خاصية السيلان ليس شيئاً ذاتياً للمادة التى يتكون منها ، وإنما هو صفة عرضية ، بدليل : أنه مركب من عنصرين بسيطين ، وفي الإمكان إفراز هذين العنصرين عن الآخر فيرجعان إلي حالتهما الغازية ، وتزول صفة الماء تماماً . ومن الواضح أن الصفات التى يمكن أن تزول عن الشيء لا يمكن أن تكون ذاتية له .

ج – أن خواص العناصر البسيطة نفسها ليست ذاتية أيضاً – فضلاً عن خصائص المركبات – والبرهان العلمي على ذلك ما مر بنا من إمكان تحرك بعض العناصر إلي بعض ، وبعض ذراتها إلي ذرات أخري ، طبيعياً أو صناعياً ، فإن هذا أمر يدل على أن خصائص العناصر إنما هي صفات عرضية للمادة المشتركة بين جميع العناصر البسيطة .. فليست صفات : الراديوم والرصاص

والآزوت والأوكسجين ذاتية للمواد التي تتمثل في تلك العناصر : ما دام في الإمكان تبديلها البعض بالبعض .

د – وأخيراً ، فنفس صفة المادة أصبحت – على ضوء الحقائق السابقة – صفة عرضية أيضاً ، فهي لا تعدو أن تكون لوناً من ألوان الطاقة ، وشكلاً من أشكالها ، وليس هذا الشكل ذاتياً لها ، لما سبق تبين أنها قد تستبدل هذا الشكل بشكل آخر ، فتتحول المادة إلي طاقة ، ويتحول الكهرب إلي كهرباء .

ثم ينتهي المؤلف – بعد ذلك إلي النتيجة الفلسفية فيقول – " وإذا أخذنا تلك النتائج العلمية بعين الاعتبار ، وجب أن ندرسها درساً فلسفياً لنعرف ما إذا كان في الإمكان أن تفترض المادة هي السبب الأعلى (العلة الفاعلة) للعالم أم لا ؟ ولا نتردد في أن الجواب الفلسفي على هذا السؤال هو النفي بصورة قاطعة وذلك لأن المادة الأصلية للعالم حقيقة واحدة عامة ، في جميع مظاهره وكائناته ، ولا يمكن للحقيقة الواحدة أن تختلف آثارها ، وتتباين أفعالها " .

لقد آثرنا هذه النقول – على كثرتها – لأنها تدمغ زعم الماديين بالحقائق العلمية التي انتهت إليها الفيزياء الحديثة بالإضافة إلي أنها تغنينا عن كثير غيرها من المصادر العلمية وهي متوفرة لمن أراد الرجوع إليها .

وهذه النتائج بلا شك تنتهي إلي ما انتهي إليه فلاسفة الإسلام ومفكروه بالطرق الفلسفية غير أنها هي الأنسب في هذا المقام ، مقام البحث العلمي التجريبي .

وأخيراً يبقى السؤال :

هل تستطيع الحواس أو المنهج التجريبي أن يصل إلي الحقيقة ؟

لقد اعتمد الماديون هذا المنهج فرفضوا به الوجود الإلهي . وكل ما وراء المادة من غيبيات وروحانيات ، ومفاهيم كلية ، وحقائق ثابتة ، وقيم إنسانية

مطلقة ... وقد انكشف لنا أن ما زعموه يصطدم بالحقائق والعلمية ومن ثم نستطيع القول :

إن المنهج التجريبي يستطيع – بيقين – أن يصل من خلاله الإنسان إلي الحقيقة الأزلية والمعرفة العليا ، لا عن طريق ذاتها مباشرة بل عن طريق آثارها المترامية الأطراف في رحاب الكون ، وهذا ما قررته الآيات الكونية في القرآن الكريم وجاء به العلم الحديث .

فإن كثيراً من الأشياء لا تدرك بذاتها مباشرة ولكن تدرك بآثارها ومن هذه الأشياء ما اكتشفه الماديون أنفسهم مثل : الطاقة والجاذبية ، والكهرباء ، وكذلك تلك الحقائق الواقعة كالروح والطبيعة وغيرها من صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه على كل شيء قدير .

ورغم أن النتيجة في المنهج التجريبي ظنية واحتمالية أي عرضة للصواب والخطأ فإنها طالما تتفق مع الحقائق الواقعة في الوجود فإنها تصبح يقينية تؤدي إلي اليقين .

ومن جانب آخر لا يمكن لإنسان أن يتجه بالبحث نحو الحقيقة الأزلية ويسلك طريق الحس أو المنهج التجريبي ويقف عند حد الحس وحده بل إنه في هذه الحال لا ينفصل عن الإدراك في شيء ومن ثم يكون هذا هو " الإدراك الحسي " الذي يعنيه علم النفس الفسيولوجي ، وتلك حقيقة واقعة لا مناص منها .

وفي نهاية هذا الموضوع نذكر بالآيات الكونية في القرآن الكريم . وكيف أن الله تعالي قد عني بتوجيه الإنسان نحو الكون بهذا الكم الهائل من تلك الآيات الربانية . وما ذلك إلا أنها تؤتي ثمارها بحق في الوصول إلي المعرفة العليا عن طريق الإدراك الحسي في الاعتبار الأول .

لأنه هو الذي يعم جميع الناس . تأمل قوله تعالي من سورة النحل :

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٧) .... وهكذا إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٨) .

---

١ – سورة النحل الآية رقم : (٣) .

٢ – سورة النحل من الآية رقم : (٤) .

٣ – سورة النحل الآيات رقم : (٥ – ٧) .

٤ – سورة النحل الآيات رقم : (٨– ٩) .

٥ – سورة النحل الآيتان رقم : (١٠ – ١١) .

٦ – سورة النحل الآية رقم : (١٢) .

٧ – سورة النحل الآية رقم : (١٣) .

٨ – سورة النحل الآية رقم : (١٨) .

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٤) .

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

بل إن مجرد استقراء أسماء السورة في القرآن الكريم يلفت نظر الإنسان المخلص – الذي ينشد الحقيقة – إلي ما في الكون من دلائل القدرة الإلهية ، وشواهد العظمة الربانية .

إن منها ما هو بأسماء الإنسان : النساء . الإنسان . الناس . عدا أسماء بعض الأنبياء حيث يقص علينا سيرتهم مع الماديين المشركين من أقوالهم . مثل : يونس ويوسف وإبراهيم ومحمد "صلي الله عليهم أجمعين" .

وإن منها ما هو بأسماء الحيوان : البقرة . الأنعام . العاديات والفيل

---

١ – سورة النحل الآية رقم : (٦٥) .
٢ – سورة النحل الآية رقم : (٦٦) .
٣ – سورة النحل الآية رقم : (٦٧) .
٤ – سورة النحل الآية رقم : (٦٨) .
٥ – سورة النحل الآية رقم : (٦٩) .

وإن منها ما هو بأسماء الحشرات : النحل . النمل . العنكبوت .

وإن منها ما هو بأسماء بعض الظواهر الطبيعية : الرعد . الذاريات . الدخان . المرسلات .

وإن منها ما هو بأسماء المعادن : الحديد .
وإن منها ما هو بأسماء النبات : التين .
وإن منها ما هو بعض مراحل الجنين : العلق .

وإن منها ما هو بأسماء بعض الأماكن : الكهف . سبأ . الأحقاف . الطور . الحجرات . البلد .

وإن منها ما هو بأسماء الزمن : الجمعة . الليل . الضحى . العصر
وإن منها ما هو أدوات القلم والكتابة : القلم .
وإن منها ما هو اليوم الآخر : الواقعة . الحاقة . القيامة . الغاشية . القارعة . الزلزلة .

وإن منها ما هو أسماء الله وصفاته : فاطر . الرحمن .

هذا بالإضافة إلي صيغ القسم المختلفة بكثير من آيات الله ومخلوقاته للدلالة على ما فيها من مظاهر القدرة الإلهية والمنافع الربانية للإنسان والحياة .

الدلالات المستفادة من الآيات الكونية :ـ

إن الآيات الكونية في القرآن الكريم تؤكد لنا الكثير من الدلالات التي تدعم إيمان المؤمن كما تدفع غير المؤمن إلي الإيمان . ومن هذه الدلالات بل أهمها :

١ – دلالة الخلق والإتقان والإبداع .
٢ – دلالة العناية والرعاية .
٣ – دلالة الهيمنة والتدبير .